الخلافة والملك



عبد السلام ياسين

الخلافة والملك

الطبعة الرابعة: 2018/1439
ISBN: 9789953506616



لبنان – بيروت – البسطا التحتا – الباشورة
هاتف وفاكس المكتب: ٦٥٩٩٩٨ / ٠٠٩٦١
هاتف وفاكس المطبعة: ٨١٣٢٠٣ / ٠٠٩٦١
البريد الإلكتروني: darlubnan@hotmail.com
الموقع الإلكتروني: darlubnan.com

رقم الحساب للتحويل المصرفي

Darlubnan for Printing and Publishing

First National Bank-Jnah

Account No: 007-111940012

Swift code: FINKLBBE

Iban: LB 89 0108 0000 0000 0071 1194 0012

بسم الله الرحمن الرحيم

الخلافة والملك

عبد السلام ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه وحزبه

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون.

الموعد الله يا من انحرفوا بالحكم الإسلامي من خلافة راشدة هادية مهدية إلى ملك عاض فملكٍ جبريٍّ.

«**الموعد الله**» كلمة قالها للحجاج بن يوسف رمزِ الجور كُميل بن زياد. قال له: «اقضِ ما أنت قاضٍ وبعد القتل الحساب» فأمر بضرب عنقه.

«**الموعد الله**» كتبها سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ليزيد بن معاوية حين دعاه لبيعته. قال رافضا في رسالة طويلة: «الموعد الله، وكفى بالله للمظلومين ناصرا من الظالمين».

الموعد الله يا من يسعون لإقامة الحكم الإسلامي الرائد تعرُّضا لموعود رسول الله ﷺ الذي أخبرنا أنها تكون بعد العض والجبر خلافة ثانية على منهاج النبوة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا من يقرأون كلماتي هذه. الموعد الله لتُجزى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، ولينال المجاهدون في سبيل الله ما وُعدوا من فضل الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا من يعلمون الأمة دينها لتنفض عنها خمول القرون، وسكون الخضوع للظالمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا من يوقظون الوسنان الغافل عن الله، الناسي آخرته لينهض مقبلا على ربه، مشمِّراً عن ذيول جده، مستعدا ليوم لا ريب فيه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا من يدلون المؤمنين والمؤمنات الراجعين إلى ربهم من قبور الغفلة وذل الاستكانة أن ذروة سنام الإسلام الإحسان، وأن زينة الإسلام الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا من يصبرون مع جند الله في مواطن الصبر حتى يستقيم عُود الدعوة ويتأهل جند الله لحمل أمانة الدين كاملة: أمانة الدعوة والدولة مقترنَـتَـيْن غيرَ منقوضة إحداهما عن الأخرى.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيتها الأجيال النافرة من مذهب كل خامل مُتداع ومقلد قابع عند مألوف عادته ووَداعته، أجيالٍ تُلبي داعي الله وداعي رسوله ﷺ إلى تبليغِ رسالة الله ورسوله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيتها الأجيال العالمة المعلمة، الطاهرة المطهرة. علموا أمة سيدنا محمد ﷺ ما هو الدين القيم:

– في سلوك العبد إلى ربه ساعيا لنيل مرضاته والمقامات العليا في مقعد الصدق عنده.

– في ميدان الحكم حيث يتقرر مصير الأمة.

– في نور العلم والتنوُّرِ به حتى تنقشع عن القلوب والعقول غَشاوات الجهل.

– في كرامة العزة بالله، كرامة ترفض الظلم وتقيم دولة العدل.

– في أمانة حمل رسالة الله إلى العالمين مبلغين عن رسول الله ﷺ رسالة الرحمة والحكمة.

– في أمانة تربية الإنسان على الدين الكامل: إسلام وإيمان وإحسان.

– في الصبر على زعازع ما يفتحه الله عز وجل على الإنسان من بلايا تشيب لهولها الوِلدان. مما تخترعه عقول مخترعة، وخيالات مبدعة، ومُلهيات مصَدّعة.

– في اليقظة القلبية العقلية العالمة الباصرة، تهفو قلوبنا، وتتطلع هممنا لرضى الله، ولقاء الله، مقبلين على الله، غيرَ ناكصين ولا مبدلين لكلمات الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيتها الأجيال الصالحة المصلحة الجاهرة بالحق القائمة على الحق، لا يضرها إن شاء الله كيدُ المخالِف، ولا ترَبص العدو، ولا وسوسة النفس والشيطان. ولا يُغريها سفساف الدنيا وغُرورها كما يُغرى التافهين القاعدين في الدنيا المغبونين في الآخرة.

الموعد الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا من يقف على هذه الكلمات ويدعو بخير.

سلا، ليلة الإثنين 6 شعبان 1420

الفصل الأول

خليفة أنا أم ملك ؟

- خليفة أنا أم ملك ؟
- الخلافة للدين والدنيا
- ظاهرة فريدة
- نظام قرآني
- صورتان
- وجه خليفة
- وجه ملك

خليفة أنا أم ملك ؟

أخرج ابن سعد في الطبقات أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لسلمان: «أمَلِكٌ أنا أم خليفة ؟» فقال له سلمان: «إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقلَّ أو أكثر، ثم وضعته في غير حقه، فأنت ملك غير خليفة ! فاستعبر (بكى) عمر». وأخرج أيضا عن عمر أنه قال: «والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك ! فإن كنت ملكا فهذا أمر عظيم ! قال قائل: يا أمير المؤمنين ! إنَّ بينهما فرقا. قال: ما هو ؟ قال: الخليفة لا يأخذ إلا حقا، ولا يضعه إلا في حق. وأنت بحمد الله كذلك. والملك يعْسِف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا».

لم يكن الصحابة يتخيلون أن الخيانة يمكن أن تتجاوز التعسف في الأموال إلى اللعب بالدين. لذلك أعطوا هذا المعيار الساذج الذي يشتمل في الحقيقة على دراية بموطن الضعف في البشر: حبِّهم للمال. وكان خلفاء النبوة عدولا في الأموال من جملة ما حازوا من فضل. فقد أحيوا الدين روحا وجسما، عدلا واقتصادا، دعوة وجهادا. قال القاضي الماوردي: «إن الخلفاء الراشدين كانوا لا يرون الخلافة إلا لإحياء الدين ولا الإمارة إلا لصالح المسلمين. وكانوا أهل رأفة بالمؤمنين. سيرتُهم العدلُ، وقولهم الفصل. وقضاؤهم الحق. وكلامهم الصدقُ. وقد لبسوا الـمُسوح والصوف. وجردوا السيوف، يضربون بها وجوه الكفار. وأخذوا السياط، يقمعون بها رؤوس الفُجّار. حتى فتحوا الفتوح، وهزموا الجيوش، وقهروا الجبابرة، وقتلوا الفراعنة. وأظهروا نور الحق في

الغرب والشرق. ظاهرهم الخشوع، وباطنهم الخضوع لله. وبغيتهم الآخرة، والاستخفاف بالدنيا. جعلوها تحت أقدامهم، إذ عرفوها حق معرفتها. ووضعوها في منـزلتها»[1].

الخلافة للدين والدنيا

كان هم الآخرة وخوفُ الله يملأ جوانح الخلفاء الراشدين، وكانوا يدركون أن الملكَ فسادٌ، فيخافون أن يقترفوا ما يقترفه الملوك. كانوا يعلمون أن خلافتهم للنبوة تقتضي منهم إصلاح الدين، فلا يكون إصلاح الدنيا بالتعفف عن مال المسلمين إلا وسيلة لتلك الغاية. جعلوا الدنيا تحت أقدامهم، فملكوا الشهوة والكبرياء، وهما الداءان الفاتكان، يخربان المجتمع إن أُطْلِقَ لهما العِنان. ولا شك أن رأس السلطان إمّا أن يزمهما فتصلح الأمة، أو يرديانه فيفشو الفساد في من حوله، الأقربَ فالأقْرب. قال نابغتنا ابن خلدون يُعرف الملك والخلافة: «إن الملك الطبيعيَّ هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار. والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها. إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة. فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»[2].

---

(1) كتاب «نصيحة الملوك» نقلا عن فصول نشرها سعيد بنسعيد في هامش كتابه «دولة الخلافة»، ص174.

(2) المقدمة، ص 338 .

ظاهرة فريدة

في اصطلاح ابن خلدون يتمثل الملك الطبيعي في رئاسة قبلية مستندة إلى عصبية. في وسط هذه العصبية نواة قوية، عشيرة أشد تلاحما وأكثر رجالا، تفرض نفسها على الكافة «بمقتضى الغرض والشهوة»، أي لمصلحة أصحاب السلطان ورفاهيتهم ونفوذهم. والملك السياسيُّ عنده نظام أسسته العصبية، ثم توسع وتحضر، فاقتضى تشعبُ واجباته أن يسوسه النظر العقلي. وابن خلدون خيرُ مَنْ وَصف الصراع على السلطان في تاريخ المسلمين. هذا الصراع سمة لا تنفك عن طبيعة الملك. تضاف إلى السمة التي صادفناها أولا، وهي التعسف في الأموال. فتجتمع خصلتا الشهوة والاستكبار، وهو ما سماه ابن خلدون بالغرض والشهوة.

أما الخلافة فكانَ رجالها يلبسون الـمُسُوح، ويضعون الدنيا تحت أقدامهم، كما قال الماوردي. وكانوا أيضا -وهذه ظاهرة فريدة في تاريخ البشر- يتدافعون الرئاسة ويتحامونها، خوفا من تَبِعَتِها، عكسَ ما نعرفه من تسابُقِ الطبيعة البشرية إليها.

أخرج أبو نُعيم في «فضائل الصحابة» عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: «يا أيها الناس ! إن كنتم ظننتم أني أخذت خلافتكم رغبة فيها أو إرادةَ استئثارٍ عليكم وعلى المسلمين، فلا والذي نفسي بيده ما أخذتها رغبة فيها، ولا استئثارا عليكم، ولا على أحد من المسلمين. ولا حرصت عليه ليلة ولا يوما قط. ولا سألت الله سرا ولا علانية. ولقد تقلدت أمرا عظيما لا طاقة لي به إلا أن يعين الله. ولَوَدِدْتُ أنها إلى أيٍّ من أصحاب رسول الله ﷺ على أن يَعْدِلَ فيها. فهي إليكم

رَدٌّ ! ولا بيعةَ لكم عندي. فادفعوا لمن أحببتم، فإنما أنا رجل منكم». وفي رواية للعشاري أن أبا بكر خطب فقال: «هل من كارهٍ فأُقيلَه ؟» فقام إليه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال: «لا والله لا نُقيلك ولا نَسْتَقِيلُك ! من ذا الذي يُؤَخرك وقد قدَّمك رسول الله ﷺ ؟».

وأخرج ابن راهَويْه وابن خَيْثمة أن أبا بكر رضي الله عنه حين استُخْلِفَ قعد في بيته حزينا. فدخل عليه عمر رضي الله عنه، فأقبل عليه يلومه، وقال: «أنت كلفتني هذا الأمر !» وشكا إليه الحكم بين الناس. فقال له عمر: «أوما علمت أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إن الوالي إذا اجتهد فأصاب الحق فله أجران. وإن اجتهد فأخطأ الحق فله أجر واحد** ؟» فكأنه سهَّلَ على أبي بكر رضي الله عنه».

نظام قرآني

كان الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم يتدافعونها ويحزنون خوف المسؤولية عند الله العزيز العليم. لا جرم أن تنبثق عن هذا التسامي الإيماني دولةٌ قرآنية هي الامتداد الطبيعي لحكم النبوة، ونظام النبوة، وجهاد النبوة، وأخلاق النبوة. كتب الأستاذ حسن البنا عن «الدولة الإسلامية الأولى»، قال: «على قواعد هذا النظام الاجتماعي القرآني الفاضل قامت الدولة الإسلامية الأولى، تؤمن به إيمانا عميقا، وتطبقه تطبيقا دقيقا، وتنشره في العالمين. حتى كان الخليفة الأول رضي الله عنه يقول: «لو ضاع مني عِقال بعير لوجدته في كتاب الله»، وحتى إنه لَيقاتل مانعي الزكاة، ويعتبرهم مرتدين، بهدمهم هذا الركن من أركان هذا النظام. ويقول: «والله لو منعوني عِقالا كانوا يُؤَدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم ما استمسك السيف بيدي».

وكانت الوحدة بكل معانيها ومظاهرها تشمل هذه الأمة الناشئة. فالوحدة الاجتماعية شاملة بتعميم نظام القرآن، ، ولغة القرآن. والوحدة السياسية شاملة في ظل أمير المؤمنين، وتحت لواء الخلافة في العاصمة. ولم يَحُلْ دونها أنْ كانت الفكرة الإسلامية فكرة لا مركزية في الجيوش، وفي بيوت المال، وفي تصرفات الوُلاَة. إذْ أنَّ الجميع يعملون بعقيدة واحدة وبتوجيه عام متحد.

ولقد طاردت هذه المبادئ القرآنية الوثنيةَ المخرفةَ في جزيرة العرب، وبلاد الفرس، فقضت عليها. وطاردت اليهودية الماكرة، فحصرتها في نطاق ضيق، وقضت على سلطانها الديني والسياسي قضاء تاما. وصارعت المسيحية حتى انحصر ظلها في قارتي آسيا وإفريقيا، وانحازت إلى أوربا في ظل الدولة الرومانية الشرقية بالقسطنطينية.

وتركز بذلك السلطان الروحي والسياسي للدولة الإسلامية في القارتين العظيمتين. وألَحَّت بالغزو على القارة الثالثة، تهاجم القسطنطينية من الشرق، وتحاصرها حتى يَجْهَدَها الحصار. وتأتيها من الغرب، فتقتحم الأندلس. وتصل جنودُها المظفرة إلى قلب فرنسا، وإلى شمال وجنوب إيطاليا. وتقيم في غرب أوربا دولة شامخة البنيان، مشرقة بالعلم والعرفان. ويتم لها بعد ذلك فتح القسطنطينية نفسِها، وحصرُ المسيحية في هذا الجزء المحدود من قلب أوربا.

وتمخُر الأساطيل الإسلامية عُباب البحرين الأبيض والأحمر، فيصيرُ كل منهما بِحِيزَةٍ إسلامية. وتقبض قوات الدول الإسلامية بذلك على مفاتيح البحار في الشرق والغرب. وتتم لها السيادة البرية والبحرية.

وقد اتصلت هذه الأمم الإسلامية بغيرها من الأمم، ونقلت كثيرا من الحضارات. ولكنها تغلبت بقوة إيمانها، ومتانة نظامها، عليها

جميعا. فعربتها أو كادت. واستطاعت أن تصبغها، وأن تحملها على لغتها ودينها، بما فيها من روعة وحيوية وجمال. ولم يمنعها أن تأخذ النافع من هذه الحضارات جميعا، من غير أن يؤثر ذلك في وحدتها الاجتماعية أو السياسية»[1].

كتب الإمام البنا رحمه الله هذا قبل أن يتعرض لأسباب الانحلال في كيان دولة الإسلام.ونراه سحب اسم «الدولة الإسلامية الأولى» على عهود شملت الخلافة الراشدة والملك العاض حتى فتوح آل عثمان رحمهم الله. ولا شك أن ما بقي من سِمات الخير في الأمة بعد فساد الحكم مرجعُه إلى قوة دولة القرآن النبوية والراشدة التي سَرَتْ قوتها للتاريخ اللاحق رغم تخريب الملوك. هذا بالإضافة إلى أنَّ من هؤلاء الملوك من كانوا فضلاء أحيوا ما استطاعوا من الدين. وما يستطيع أن يصلح شخص عابر إذا بقي النظام بعده فاسدا ؟

صورتان

نقف عند صورتين، صورة لخليفة وصورةٍ لملك من ذلك العهد الأول. ولن يحجب عنا وجه الرًجل الذي نـتأمله ما خَلْفَه، ابتداء من الذين رفعوه إلى سدة الحكم، وانـتهاء بحالة المجتمع كافة، من حيث قابليتُه للخضوع لسطوة الجبارين، أو استعصاؤه عليها.من حيث وجود أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أو قَهَرها السياط والقتل. فإنه ما صَنَعَ تاريخ المسلمين أشخاص منفردون مهما علت مرتبتهم كما يتصور القارئ العامي للتاريخ. إنما صَنَعَه ما هنالك من مصلحة أخروية جمعت الأمة، فهي ترعى تلك المصلحة العليا فيستقيم لها

(1) رسالة «بين الأمس واليوم».

الأمر، ويكون ولي أمرها الذي نصبته واختارته مرآة تجلو وجه الأمة. أو تهيمن المصالح الدنيوية و«الغرض والشهوة»، ويستكين العباد للظلم، فيحكم السيف، ويعلو الأوباش، وتُوطأ كرامة الأمة. الصنع صنع الله لا رب غيره، ويبوء العباد بما كسبت أيديهم.

وجه خليفة

وصف الإمام علي كرم الله وجهه عمر بن الخطاب قال: «لله در فلان فقد قوَّمَ الأوَدَ، وداوَى العَمَدَ. خلَّفَ الفتنة، وأقامَ السنة. ذهب نقيَّ الثوب، قليلَ العيب. أصابَ خيرها، وسبق شرها. أدى إلى الله طاعته، واتقاه بحقه»[2].

نعم ! قد يكون الشخص الجالس على سدة السلطان علَمَ هُدىً، ومناراً للأمة، إذا كان مثلَ عمر. ويحدث بذهابه ثلم في صرح الأمة فتتشعب بهم الطرق. لا نكرانَ لأهمية الأشخاص في الصلاح والفساد. لكن النظام هو مناطُ الخير والشر في المرتبة الأولى. قال القاضي أبو بكر الباقلاني في كتاب «التمهيد»: «فلم يخب في عمر رأيُه (رأي أبي بكر الذي استخلفه)، ولا خاب ظنه. بل زاد على ما أمَّله منه، وقدَّره فيه. وظهر من جَلَده وشِدته في الله وصرامته ما لا خفاء به. ففتح الفتوح، وجند الأجناد، ومصَّر الأمصار، واستأصل الملوك، واستولى على ديارهم، (...) وصَلُحَ بنظره الحاضر والبادي، والقاصي والداني، وقوَّمهم بالدِّرَّة دون السيف، وأقام الدعوة، وقال: «لئن عشت للمسلمين ليبلُغَنَّ الراعيَ حقُّه بعَدَنَ من هذا المال». متواضعا

(2) نهج البلاغة، ج 2، ص222.

في جميع ذلك لربه، خاشعا لأمره، غير وانٍ في شيء مما يَلْزَمُه القيامُ به. لا تغَيِّرُه الإِمْرَة، ولا تُبْطِرُه النعمة، ولا يستطيل على مؤمن بسلطانه، ولا يُحابي أحدا في الحق لِعِظَمِ شأنه، ولا يدع استخراجه للضعيف لضعفه، ولا تأخذه في الله لومة لائم. يحمل الجَرَّة بنفسه، ويلبس المرقع، ويباشر نفقة الأرامل وأهل المنازل بنفسه، ويطوف عليهم في ليله ونهاره (...). قالت عائشة وعبد الرحمن وعمرو بن العاص وغيرهم من الصحابة ممن وصفه: إن عمر أبدت له الدنيا زينتها وزخرفها، وألقت إليه أفلاذ كبدها، يعني كنوز الذهب، فمشى ضحضاحها (كأنها نهر عبره من مخاضة قليلة العمق)، وخرج منها سليما ما ابتلَّتْ قدماه»[1].

لا شك أن تأثير القيادة القوية كبير على سير الجماعة. لكن إذا كانت الجماعة منحلة والعصبية غالبة فما جدوى رجل أو حفنة رجال ؟ مع عمر، ومن ورائه مؤيدين متعاونين، كان رجال ونساء لا تغرهم المظاهر، ولا تأخذهم شخصية رجل فذ. بل كانوا يقيسون شؤون الدنيا بمعايير الإيمان. فكان عمر في عينهم، قبل كل شيء، هو الرجل الذي «مشى ضحضاحها وخرج منها سليما ما ابتلت قدماه». كان شأنُ الآخرة عندهم هو الشأن. أولئك حزب الله. ألا إن حزب الله هم المفلحون.

(1) نصوص الفكر السياسي الإسلامي، جمع يوسف أيْبش، ص72.

وجه ملك

نورد هنا صورة ملك لا لثلب الموتى، لكن لتتضح لنا معالم الفرق بين الخلافة والملك. ولنعرف بالمثال الحيّ التاريخي ما يجب أن ننقطع عنه، وهو نظام العض والجبر، وما يجب أن نحييه ونصل حبلنا به، وهو نظام الخلافة.

روى الإمام البخاري عن سعيد بن عمرو بن سعيد قال: أخبرني جدي قال: «كنت جالسا مع أبي هريرة في مسجد النبي ﷺ بالمدينة ومعنا مروان. قال أبو هريرة: سمعت الصادق المصدوق يقول: «**هَلَكَةُ أمتي على يديْ غِلْمَةٍ من قريش**. فقال مروان: لعنة الله عليهم غِلْمَةً ! فقال أبو هريرة: لو شئت أن أقول بني فلان، بني فلان، لفعلت». فكنت أخرج مع جدي إلى بني مروان حين ملكوا الشام، فإذا رآهم غلمانا أحداثا قال لنا: عسى هؤلاء أن يكونوا منهم ! قلنا: أنت أعلم». والحديث عند الإمام أحمد من طرق متعددة.

بدأ الغِلمة المفسدون من يزيد ثم مروان الذي سمعناه يلعن الغلمة قبل أن تكشف الأيام أنه زعيمُهم. ثم فشا الفساد والإفساد في ذريته وشيعة بني أمية، حاشا بعضَ الصالحين منهم، وهم قلة إمامُهم الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى.

كان الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان نموذج الملك الساقط. كان «ماجنا سفيها يشرب الخمر، ويقطع دهره باللهو والغزل. ويقول أشعار المغنين، ويعمل فيها الألحان». وكان يجاهر بفسقه وزندقته لا يتَخَفَّى. وكان أولَ من حمل المغنين والـمُجَّان إلى عاصمة الملك من كل الأقطار. ويَرْوي المؤرخون أن كفره بلغ به أن عزم على بناء سطح الكعبة قبة يشرب فيها الخمر. ولا يتسع المقام هنا ولا يسمح التعفف

أن نذكر كلامه الساقط. تكفي قصة كفره يوم فتح المصحف يستفتح بآياته، فقرأ آيات تهدد بالعذاب وهي قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدَ**﴾[1] فقال شعرا:

تهددني بجبار عنيد | فها أنا ذاك جبار عنيد
فإن لاقيت ربك يوم حشر | فقل يا رب مزقني الوليد

ومزق المصحف. وقال وقد ذُكرت عنده الآخرةُ والحساب:

تذكرني الحساب ولست أدري | أحقا ما تقول من الحساب
فقل لله يمنعني طعامي | وقل لله يمنعني شرابي»[2].

تصور ما تكون عليه أحوال الدولة وأموال الأمة وأعراضها تحت غلام هالك مهلك مثل هذا. كان يبيع الرتب المدنية والعسكرية ويجبي الأموال لينفقها على سفهاء بلاطه ومحظياته. توج فساده بأن أرغم الناس على بيعة صبيين بولاية العهد بعده.

كان الويل قد بلغ الدركة السفلى بنظام الحكم، فكيف حدث هذا ؟

(1) إبراهيم، 15-16.
(2) شذرات الذهب، ج 1، ص170-171، ملخصا.

الفصل الثاني

الانكسار التاريخي

- خلفاء الله في الأرض
- الإمام الشهيد
- حمية الجاهلية تستيقظ

خلفاء الله في الأرض

قال الله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[1].

قال أبوبكر بن العربي في تفسير هذه الآية: «قال علماؤنا: هذه الآية وعدُ حقٍّ، وقول صدق، يدل ذلك على صحة إمامة الخلفاء الأربعة، لأنه لم يتقدمهم أحد في الفضيلة إلى يومنا هذا. فأولئك مقطوع بإمامتهم، متفق عليهم. وصدَقَ وعدُ الله فيهم. وكانوا على الدين الذي ارتضى لهم. واستقر الأمر لهم. وقاموا بسياسة المسلمين، وذبوا عن حوزة الدين. فنفذ الوعد فيهم (...). قام أبو بكر بدعوة الحق، واتفاق الخلق (انتخاب الصحابة إياه)، وواضح الحجة، وبرهان الدين، وأدلة اليقين. فبايعه الصحابة. ثم استخلف عمر فلزمت الخلافة، ووجبت النيابة، وتعين السمع والطاعة. ثم جعلها عمر شورى، فصارت لعثمان بالنظر الصحيح، والتبجيل الصريح، والمسَاقِ الفسيح (...). ثم قُتل عثمان مظلوما في نفسه، مظلوما جميعُ الخلقِ فيه. فلم يبق إلا عليٌّ، أخْذاً بالأفضل فالأفضلِ، وانتقالا من الأوَّل إلى الأول»[2].

توفي رسول الله ﷺ ولم يترك لأصحابه وصية فيما يتعلق بالحكم إلا استخلافه أبا بكر على الصلاة. فاستنبط منها الصحابة دليلا

---

(1) النور، 55.

(2) أحكام القرآن، ج 3، ص1380–1381.

على أحقية أبي بكر، إذ قالوا: «رجل رضيه رسول الله ﷺ لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا؟». فبعد مناقشة المسألة في سقيفة بني ساعدة، اجتمع رأيهم على أبي بكر الصديق فبايعوه. وكان تـنافس الأنصار والمهاجرين على الإمارة في افتـتاح ذلك المجلس تسابُقا إلى الخير ما خَلَّفَ حزازات. وطوت الأيام سريعا ذلك النقاش في ظل الأخوَّة، وفي ظل جلائل الأعمال.

ما ترك رسول الله ﷺ إلا هذه الوصيةَ الجامعة التي رواها عن ابن مسعود كل من البزار والطبراني في الأوسط وابن سعد وابن أبي الدنيا، قال ابن مسعود: «دخلنا على رسول الله ﷺ في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق. فنظر إلينا فدمعت عيناه ﷺ ثم قال: **مرحبا بكم ! حياكم الله ! آواكم الله ! نصركم الله ! وأوصيكم بتقوى الله. وأوصي بكم الله، إني لكم منه نذير مبين، ألاّ تعلوا على الله في بلاده وعباده. وقد دنا الـمُنْقَلَبُ والـمَرْجِعُ إلى الله، وإلى سِدرة المنـتهى، وإلى جنة المأوى، وإلى الكأس الأوفى. فاقرأوا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدي السلام ورحمة الله**».

كان العلو في الأرض والاستكبار على العباد أهمَّ ما حذر منه الأمة في وصيته النذيرُ المبين ﷺ. فعاشت الأمة ثلاث سنوات في خلافة أبي بكر كلها جهاد للقضاء على تمرد الأعراب وردتهم، حتى لا تكونَ فتـنةٌ ويكونَ الدين كله لله. ثم جاءت خلافة عمر فازدهرت الأمة، حتى ظهر قرنُ الفتـنة في جريمة اغتيال الخليفة العادل، على يد غلام جاهلي، اندس في المجتمع الإسلامي، فكان رأسَ الحَرْبَةِ لقُوَى العصبية الصاعدة مع توسع رقعة دار الإسلام، وموت خيار الصحابة، وتشتت باقيهم في الأمصار.

الإمام الشهيد

تحولت بُنية المجتمع الإسلامي بسرعة كبيرة، فدخل في دين الله أمم كثيرة طوعا وإيمانا، أو حفاظا على الأرض والمال والحرية. فلما انتخب الصحابة أهلُ الشورى الإمامَ الشهيدَ عثمان رضي الله عنه، سارت الأمور على الوتيرة الأولى صدرا من خلافته. ثم التف بنو أمية من حوله، وكوّنوا بطانة ما لبثت أن استبدت بالأمر. وارتكبت الفظائع فاستيقظ العنف. وكان مقتلُ الإمام الشهيد رضي الله عنه الشَّقَّ الذي أخذ يتسع بما أحدث من نتائج تاريخية حتى شكل بداية انكسارنا ووهننا.

نشِبَتِ الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، واجتماع الصحابة على سيدنا علي كرم الله وجهه. قام أهل الشام يطالبون بدم الشهيد، فنازعوا إمام الأمة، واتخذوا ذريعةً لقتاله وجودَ طوائف من الغوغاء الثائرين على عثمان تحت ألويته. قال القاضي ابن العربي يذكر الفتنة بعد مبايعة الإمام عليٍّ رضي الله عنه: «لأن عثمانَ رضي الله عنه قُتِلَ والصحابة بُرَءاءُ من دمه. لأنه مَنَعَ من قتال من ثار عليه، وقال: لا أكون أوَّلَ من خَلَفَ رسول الله ﷺ في أمته بالقتل. فصبر على البلاء، واستسلم للمحنة، وفَدَى بنفسه الأمة. ثم لم يمكن تَرْكُ الناس سُدىً. فعُرِضَت الإمامةُ على باقي الصحابة الذين ذكرهم عمر في الشورى، وتدافعوها. وكان عليٌّ أحقَّ بها وأهلها. فقبلها حَوْطَةً على الأمة أن تُسْفَكَ دماؤها بالتهارج والباطل. ويتخرق أمرها إلى ما لا يتحصل. وربما تغير الدين، وانْقَضَّ عَمودُ الإسلام.

فلما بويع له طلب أهلُ الشام في شرط البيعة التمكينَ من قَتَلَةِ عثمان، وأخْذَ القَوَدِ منهم. فقال لهم علي: ادخلوا في البيعة، واطلبوا الحق تصلوا إليه. فقالوا: لا تستحق بيعةً وقَتَلَةُ عثمانَ معك نراهم صباحا ومساء. فكان علي في ذلك أسدَّ رأيا، وأصوب قولا. لأنَّ عليا لو تعاطى القَوَدَ منْهم لتعصبت لهم القبائل، وصارت حربا ثالثة. فانتظر بهم أن يستوثق الأمْرَ، وتنعقدَ البَيْعَةُ العامّة. ويقع الطلبُ من الأولياء في مجلس الحكم. فيُجْرِيَ القضاءَ بالحق»[1].

نلاحظ في نثر فقيهنا وقاضينا أبي بكر تغاضيا حَيِيّاً عن ذكر ما نشِب بين الصحابة من نزاع وقتال. فيتخطى حرب الجمل وكارثة صفين، ويُرْجِعُ النزاعَ إلى دمٍ يطالب به الأولياءُ، وكأنَّ المسألة نازلة فقهية يحكم فيها القضاء. وهكذا أمسك علماؤنا، وأوصَوْا بالإمساك، عن ذكر تلك المآسي الدموية. ولئن كان نَبْشُ الماضي للوقوف عنده، والتعرض للصحابة الكرام بالنقد وقد قُضِيَ ذلك الأمرُ، مِمَّا لا يعني الشحيح بدينه، فإن رفع جانب من الستار بقدر ما نتبين الأسباب التاريخية للانكسار الـمُرِيع واجبٌ. ولن نفهم منهاج إعادة الخلافة إن بقينا نغَطِّي وجوهنا كلما ذكرت تلك الفترة العنيفة والِدَةُ كلِّ ويلاتنا.

وقد خصص القاضي أبو بكر كتابه «العواصم من القواصم» للدفاع عن بني أمية رحمه الله وعفا عنا وعنه.

لندع الأشخاص وما يمكن أن يكون سببا لنزاعهم. ولنعتبر بالزيغ الديني، والخلَل الاجتماعي، كما كنا التمسنا الأسوة بالنموذج الكامل.

(1) أحكام القرآن، ج 4، ص1706.

حمية الجاهلية تستيقظ

وجد رسول الله ﷺ مجتمعا تربط أفراده عصبية القبيلة والعشيرة والقُرْبَى. فحافظ على هذا الرباط لم يكسره. لكن وجَّهَ ما يمثله من قوة لخدمة الوَلاية بين المؤمنين. لم يأمر المسلمين أن يتنكروا للقبيلة والعشيرة من حيث كونُها قبيلة وعشيرة. إنما أمر بمقاطعة الكفر. نقرأ في السيرة النبوية كيف دخل مكة وجُنْدُه كتائبُ منظمَة، كل قبيلة على حِدَةٍ. فكان شعور المرء بوَلاية الإسلام يتعَضَّد ويَقوَى بشعوره بالأمن بين العشيرة والأهل.

وكان للتضامن الأسَرِي والعشيري شأن في بعثة الأنبياء. قال رسول الله ﷺ: «**قال لوط: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾**[2] **قال: قد كان يأوي إلى ركن شديد، ولكنه عنى عشيرته. فما بعث الله عز وجل بعده نبيا إلا بعثه في ذِرْوَةِ قَوْمِهِ.** قال أبو عمر: فما بعث الله نبيا بعده إلا بعثه الله عز وجل في مَنَعَةٍ من قومه». رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة.

هكذا يريد الله ورسوله أن تكون لُحمةُ النسب والعشيرة سنَداً للدعوة. لكن عندما تكون العصبيةُ القبليةُ قوةً مضادة للإسلام فالإسلام يحاربها. نقل ابن كثير أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي رُدِّيَ، فهو يَنْزِعُ بذنبه**». وروى أبو داود أنه ﷺ قال: «**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل**

(2) هود، 80.

على عصبيـة، وليس منا من مات على عصبيـة». وروى البخاري عن جابر قال: «كنا في غَزاة فكَسَعَ (ضربه على ظهره) رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال الأنصاري: يالَلأنصار ! فقال المهاجريُّ: يالَلْمهاجرين ! فقال النبي ﷺ: **دَعوها ! إنها مُنْـتِنَةٌ !**».

الحمية الجاهلية هي التـناصر على الباطل. والمثَل العربي يقول: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»، يطبقُ الـمُعْصوصبون للقبيلة هذه المقالة تطبيقا حرفيا. فحول رسول الله ﷺ دلالة هذه الكلمة حيثُ قال فيما رواه الإمامان أحمد والبخاري عن الحسن: «**انصر أخاك ظالما أو مظلوما !**» قيل: يا رسول الله ! هذا أنصُرُهُ مظلوما، فكيف أنصره إذا كان ظالما ؟ قال: «**تحجُزُهُ ! تمْنَعه ! فإنَّ ذلك نصرُه**».

قال ابن خلدون يصف توسع دار الإسلام، وأعرابية القبائل، واستيقاظ العصبـية الجاهلية: «وكان أكثر العرب الذين نـزلوا في هذه الأمصار جُفاة لم يستكثروا من صُحبة النبي ﷺ، ولا هذبتهم سيرته وآدابه، ولا ارتاضوا بخُلُقه. مع ما كان فيهم في الجاهلية من الجفاء، والعصبـية، والتفاخر، والبُعْد عن سكينة الإيمان. وإذا بهم عند استفحال الدولة قد أصبحوا في مَلَكَة المهاجرين والأنصار من قريش، وكنانة، وثقيف، وهذيل، وأهلِ الحجاز ويثرب السابقين الأولين إلى الإيمان. فاسْتَـنْكَفوا من ذلك، وغُصوا به لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم، وكثرتهم، ومصادمة فارس والروم، مثلُ قبائل بكر بن وائل، وعبد القيس بن ربـيعة، وقبائل كِنْدة والأَزْد من اليمن، وتميم وقيس من مُضَر. فصاروا إلى الغض من قريش، والأَنَفَة عليهم، والتمريضِ في طاعتهم، والتعلّل في ذلك بالتظلم منهم، والاستعداء عليهم، والطعن فيهم بالعجز عن السَّوِيَّة، والعدل في القَسْمِ عن التسوية»[1].

(1) المقدمة، ص380.

فقد كان إذنْ من جهة غِلْمَة قريشٍ بقيادة مروانَ بن الحكم، زمرةٌ يستغلون السلطان، عدلوا عن التسوية في القَسم، أي مالوا عما كان عليه الأمر من تسوية الناس في العطاء. وكان من جهة أخرى قبائلُ تطمح للسلطان، وتنظر إلى عددها، ونسبها، فتُفاخر قريشا والقبائل السابقة للإسلام وتنافسها. لا سيما والأمة كانت مجندة، والصدام مع فارس والروم أعطى كثرةَ العدد وصلابة الشوكة أهمية كبيرة.

وكان من العمال والحكام من اندسوا تحت بساط الإمام عثمان رضي الله عنه، فكانوا قوما مفسدين، أعطوا غوغاء القبائل التَّعِلَّةَ اللازمة لإظهار السُّخْط، ثم التَّمَرُّدِ، ثم الثورةِ، ثم الفتكِ بالزكيِّ الطاهر رضي الله عنه. وقد عزَل الإمام بعض العمال ممن سخِطَهم الناس، فلما ضاقت الدائرة حول مروان، وطلبوا أن يُسَلِّم الإمامُ كاتَبه مروان الذي اتهموه بأنه بعث إلى عامل مصر يأمره بقتلهم، حلَّفه الإمام فحلف. فقال عثمان رضي الله عنه: «ليس في الحكم أكثرُ من هذا !». يعني أنه لا يلزَم المتهمَ عند افتقاد البينة إلاَّ الحلفُ. فحاصروه رحمه الله حتى قتلوه.

أين غابت القوة الوحيدة التي كانت قادرة على صد الغوغاء ؟ ما فعل بقية الصحابة في المدينة وإمامُهم يُغْزَى ويُحاصَر في قَعر بيته ؟ هنا ثَلْمَةٌ أخرى أدت إلى الانكسار التاريخي. فقد كان الإمام رحمه الله نهاهم عن مواجهة الغزاة بالسيف، مخافةً منه رضي الله عنه أن يزيد الفتنة اشتعالا. أما الصحابة، وهم قلة وسط هذا البحر الطامي من القبائل الأعرابية، فقد وقفوا موقف المشدوه مما يرون.

قال الباقلاني في كتاب التمهيد يصف وحشية الغوغاء: «وكان النفر الذين ذُكِر أنهم هجموا عليه من المعروفين دون أتباعهم: الغافقي، وكنانة بن بِشر التجيبي، وسودانُ بن حِمران، وعبد الله بن

بُديل بن وَرْقاء، وعمرو بن الحِمق الخُزاعي، في آخرين منهم محمد بن أبي بكر. فتسرع إليه محمد وألقاه لجنبه. وجلس على صدره، وأخذ لحيته فهزها، وغلَّظَ له في القول. وذُكر أنه ضرب جبهته بمِشْقَصٍ (موسىً حادة) كانت في يده. فلما أراد أن يُثَنِّيَ وعظه عثمان وقال له: «يَعِزُّ على أبيك أنْ ترقى هذا الـمَرْقَى !» واستحيى وانصرف. وذُكر أنه لم يَمَسَّهُ في بعض الروايات.

فعرف الغافقي وكنانة أنه انصرف حياء منه. فاقتحما عليه، وبَدَرَهُ التجيـبيُّ بضربةٍ ألقاه منها لجنبه. والمصحف في حجره. فلما سقط الدم عليه أطبقه ثم نحَّاه. وضربه غيرُه. (...) فلما رأت نائلة بنت الفَرافِصَةِ، زوجُ عثمان، وقْعَ السيف، برزت وألقت نفسها عليه. فأصابتها ضربةٌ أندرت من يدها ثلاثَ أصابعٍ، وضرب بعض أولئك الفَجَرةِ يده عليها وقال: «ما أكبر عجيزتها ! نَفِّلونيها (أعطوني إياها، يعتبرها سبِيّة !)». وصاح الآخرون: الحقوا بيت المال ! وأغاروا بديئاً على رَحْل عثمان وما كان في داره. ثم تـناولوا ما أمكنهم أخذه في بيت المال، وأضرموا الدار عليه بالنار. فاحترق أكثر أبوابها. وذُكر أن عَمرو بن الحمق قال: «طعنت عثمان تسع طعنات، ثلاث لله وستٌّ لغيره !»[1].

وحشية، ونهب، وفجور، وغوغاء صعقت الصحابة وشلت مبادرتهم. فلما رجعوا إلى أنفسهم، واجتمعوا على الإمام علي كرم الله وجهه، ظنوا لحظة أن الفتـنة خمدت. فلما قام أهل الشام بالمطالبة بدم عثمان، واضطرمت نار الحرب بين المسلمين، اعتزل طائفة من الصحابة، وتركت بانسحابها فجوة كبـيرة منها دخل على تاريخنا سابقة الحياد مخافة الفتـنة. وطائفة كانت شجاعتها في الحق ووقوفها

(1) نصوص الفكر السياسي الإسلامي، ص93-94.

مع المشروعية مثل عمار بن ياسر رضي الله عنه مَعْلَمَةً مَجيدة على طريق الاستشهاد في الحق.

قال الباقلاني: «فإن قال قائل: فإذا كان الأمر في هذا على ما وصفتم من ظلم القوم له (ظلم الرَّعاع للإمام عثمان) وتَعدِّيهم عليه، فما بال الصحابة لم يسارعوا إلى إنكار ذلك وصدِّهم عنه؟ وأيّ عذر لهم في إسلامه والتساهل في خِذلانه؟ قيل له: معاذ الله أن يكون فيهم من خذله أو قعد عن نصرته عند دعائه لهم. وإنما لزموا بيوتهم لأنه أمرهم بذلك وكرره عليهم، وناشدهم الله عز وجل»[2].

الإمساك مخافة الفتنة سابقة مكنت الرَّعاع من قتل الإمام عثمان، وأضعفت موقف الإمام علي من بعده. يقول الباقلاني: «فإن قال قائل: فإذا كانت إمامة علي من الصحة والثبوت بحيث وصفتم، فما تقولون في تأخر سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، وسلامة بن وقش، وغير هؤلاء ممن يكثر عددهم، وقعودهم عن نصرته، والدخول في طاعته؟ قيل لهم: ليس في جميع القاعدين ممن أسميناه أو أضربنا عن ذكره من طعن في إمامته، واعتقد فسادها. وإنما قعدوا عن نصرته على حرب المسلمين لتخَوُّفهم من ذلك، وتجنب الإثم فيه، وظنهم موافقة العصيان في طاعته في هذا الفعل. فلذلك احتجوا عليه في القعود ورووا له فيه الأخبار.

وقال منهم قائل (وهو سعد بن أبي وقاص): «لا أقاتل حتى تأتيَني بسيف له لسان يعرف المؤمن من الكافر ويقول: هذا مؤمن وهذا كافر! فأستَلّهُ». ولم يقل: إنك لست بإمام واجب الطاعة[3].

---

(2) نفس المصدر، ص96.

(3) المصدر السابق، ص112-113.

وقال له محمد بن مسلمة بعد مراجعته ومعارضته: «إن رسول الله ﷺ عهد إليَّ إذا وقعت الفتنة بين المسلمين أن أكسر سيفي وأتخذَ مكانه سيفا من خشب».

نطوي هذه الصفحة المؤلمة إذ تكفينا العِبرةُ، وتكفينا آلامُ الحاضر الناتجةُ عن تلك الفتنة الهوجاء. والقضاء والقدر لله والأمر كله إليه تعالى وتقدس.

الفصل الثالث

الاختيار ووِلاية المعصوم

- الاختيار ووِلاية المعصوم
- الاختيار
- السنة
- العصمة
- الإجماع
- التقليد

الاختيار ووِلاية المعصوم

نقرأ رواية البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «إن عليا خرج من عند رسول الله ﷺ في وَجَعه الذي تُوُفي فيه. فقال الناس: يا أبا حسن ! كيف أصبح رسول الله ﷺ ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئا ! فأخذ بيده العباسُ بن عبد المطلب، فقال: أنت والله بعد ثلاث عبدُ العصا ! وإني لأرى رسول الله ﷺ سيُتَوفى من وَجَعِه هذا. إني لأعرف وجوهَ بني عبد المطلب عند الموت. فاذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فنسألَه فيمن هذا الأمر ؟ فإن كانَ فينا علمنا ذلك. وإن كان في غيرنا كلمناه فأوصى بنا. فقال علي: أما والله لئن سألناها رسولَ الله ﷺ فمنَعَنَاهَا لا يعطيناها الناسُ بعدَه. وإني والله لا أسألُها رسول الله ﷺ».

ويروي الإمام مسلم حديثا عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن فاطمة بنت رسول الله ﷺ والعباسَ أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ، وهما حينئذ يطلبان أرضه من فَدَكٍ وسهْمَه من خَيْـبَر. فقال لهما أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ قال: **لا نُورَث، ما تركنا صدقة**». الحديث. وفي رواية منه أن فاطمة هجرت أبا بكر فلم تكلمه في ذلك الأمر حتى ماتت. ويمضي الحديث قائلا: «فقال رجل للزُّهْرِيِّ: فلم يـبايعه (أي أبا بكر) عليٌّ ستة أَشْهُرٍ ؟» فقال: لا والله ! ولا أحد من بني هاشم حتى بايعه علي.

فلما رأى علي انصراف وجوه الناس عنه (بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها)، ضرع إلى مصالحة أبي بكر». ويخطب الإمام علي بمحضر أبي بكر وبني هاشم في بيت الإمام عليّ فيقول بعد أن حَمِدَ الله وأثنى عليه: «أما بعد، فلم يمنعنا أن نبايِعَكَ يا أبا بكر إنكارٌ لفضيلتك،

ولا نَفَاسَةٌ عليك بخيرٍ ساقه الله إليك. ولكن كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقا. فاستبددتم علينا. ثم ذكر قرابتَه من رسول الله ﷺ وحقهم. فلم يزل عليّ يُذَكِّرُهُ حتى بكى أبو بكر».

وبعد خطبة أبي بكر يعتذر فيها عن حبسه الميراثَ لحديثٍ سمعَه من رسول الله ﷺ، يتواعدون للبـيعة عشيَّةً. قال مسلم: «فلما صلى أبو بكر الظهر أقبل على الناس يَعْذِر عليا (عن تأخره في البـيعة) عن بعض ما اعتذر به. ثم قام علي فعظم من حق أبي بكر، وذكر فضيلته وسابقته. ثم قام إلى أبي بكر فبايعه. فأقبل الناس على علي فقالوا: أصبت وأحسنت ! وكان المسلمون إلى علي قريـباً حين راجع الأمْرَ بالمعروف».

هذان الخبران ناطقان بما فيه الكفاية. وإنما أوردناهما لأنهما أصلان في النصوص بين أيدينا. وبين أيدي إخوتنا الشيعة نصوص تماثلها، شكلت الأساس العلميّ الذي بُنِيَتْ عليه مذاهب الشيعة في الحكم والخلافة والإمامة.

كان الإمام عليٌّ كرم الله وجهه قِمَّةً سامِقةً، فَحْلا من الرجال بكل معاني الفحولة. بسيفه انـتصر الإسلام، وبعلمه استـنار المسلمون طيلة عهود الخلافة الراشدة. وقد ورد في فضائله وتزكية رسول الله ﷺ إياه ما يجعله أهلا للأسبقية. مع قرابته القريبة من رسول الله ﷺ، وتعظيم الأمة لآل البيت.

روى الترمذي عن زيد بن أرْقَم أن رسول الله ﷺ قال: «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه**». وهو حديث صحيح. وروى الشيخان والترمذي واللفظ لمسلم أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «**أنت مني بمنـزلة هرون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي**».

وعند إخوتنا الشيعة نصوص موثقة لديهم، يفهمون منها أن هذا الحديث وأمثاله وصيةٌ من رسول الله ﷺ بالخلافة من بعده لعلي. ولديهم قصة غَدِيرِ خُم، أوصى فيها رسول الله ﷺ لعلي، ينكرها أهل الحديث عندنا. وقد رأينا في خبر البخاري ومسلم أن آل البيت كانوا يظنون بعد وفاة رسول الله ﷺ، ومع وجود البَضْعَة النبوية سيدةِ النساء فاطمة رضي الله عنها، أن الأمر لهم.

فلما قُتل الإمام عثمان وافترق الصحابة بين قاعد عن علي كرم الله وجهه وبين مناصر له مُظاهر، وقع الصدعُ الخطير في الأمة، وساعدت ظروف الفتنة والحروب بين المسلمين على احتداد الخلاف واستفحاله. وظهر الإمام عليّ كرم الله وجهه وسط ذلك الظلام شمسا لامعة بالهدى، وجبلا راسخا وسط الزعازع، وقائدا عديم المثال. فغالى بعضهم فيه فعبده. وآخرون -وهم الخوارج- قاطعوه وكفّروه وحاربوه. وطائفة بني أمية سبوه على المنابر.

فتأججت الأحقاد، وتوقدت غَيرة مُحبي آل البيت، ما زادت المِحَنُ التاريخية غيرَتهم إلا اشتعالا. لا سيما بعد استشهاد الإمام الحسين، أسد كربلاء وفخر الأمة، عليه السلام. وهكذا تكوَّن مذهب التشيع الذي يرى أن أمر الأمة والوِلاية عليها والخلافة فيها حقٌّ لآل البيت، لعلي وَوَرَثَتِهِ الأئمة الأطهار عليهم السلام. يوصي بذلك الإمام لوارثه كما أوصى بها رسول الله ﷺ لعليٍّ كرم الله وجهه. هكذا يعتقدون.

لا حاجة بنا للتعرض لفرق الشيعة وغُلاة التشيع من الروافض والباطنية. فلئن كانوا في تاريخ الأمة آفةً ووَبالا ترك آثاراً بليغة لا تزال حية، فإن ما يعنينا لنصب الجسور بيننا وبين إخوتنا الشيعة هو معرفةُ أصول الخلاف لتتضح لنا معالم مستقبل يعود فيه الصدع إلى الالتئام إن شاء الله كما يشاء الله ربنا الحكيم العليم. كما لا

نـتعرض لأهل النّصْبِ -نعوذ بالله- ممن اندسوا تحت السنية ليثلُبوا آلَ البيت ويُنقِّصوهم.

الاختيار

اتفق علماؤنا على أن الخلافة لا تكون بالنص والوصية، لكن باختيار الأمة. ونفَوْا الأحاديث الدالة على غير ذلك. يقول الباقلاني في كتاب التمهيد: «إن سأل سائل فقال: ما الدليل على ما تذهبون إليه من الاختيار للأمة وإبطال النص على إمام مُعيَّن؟ قيل له: الدليل على هذا أنه إذا فسد النَّصُّ صح الاختيار. لأن الأمة متفقةٌ على أنه ليس طريقُ إثباتِ الإمامة إلا هذين الطريقين. ومتى فسد أحدهما صح الآخر»[1]. هكذا وُضِعَتْ قاعدة جَدَلية تبنَّاها فقهاؤنا: «إذا فسد النص صح الاختيار». وتفرغ من علمائنا أمثال أبي بكر الباقلاني، والقاضيين البغدادي والماوردي والغزالي وغيرهم لمحاربة النص وإثبات الاختيار.

كانت معركة الفقهاء هذه دَعما ضروريا للملوك على رقاب المسلمين الذين حكموا بالسيف والعصبـية. تَجَنَّد الفقهاء للدفاع عن مشروعية حكمهم إبَقاءً على وحدة الأمة. كما تجند فقهاء الشيعة ليثبتوا النص وينفوا الاختيار فيـبرروا بذلك قومات آل البيت، وحكومات آل البيت. وصحب هذه المعارك الكلامية الفقهية مناورات الحاكمين. فتجد مَلِكاً مثلَ المأمون العباسي يتبنى الاعتزال، ثم يميل للشيعة، وهو في رسم النظام خليفةُ أهل السنة. ومن بعده الواثق والمعتصم.

(1) نصوص الفكر السياسي، ص33.

حتى كانت عودةُ المتوكل إلى مذهب أهل السنة. وكان الصراع الشديد بين أحزاب الحكم وأحزاب الشيعة، ثم بعد ذلك بين دولتي الفاطميين والعباسيين، يُستعْمَل سلاح الحديد، وسلاح الجدل، ليُقْنِعَ كلٌّ بصحة مذهبه بالقوة من لا يقتنع بالعقل.

السنة

كانت الأحزاب جميعا ولا تزال متفقة على صحة ما بين دفتي المصحف، وأنه كلام الله وإن اختلفوا في مخلوقيته. هذا والحمد لله فضل سابغ ومِنة عظمى. ولا يُلْتَفَتُ لما كان من خلاف بعض الصحابة لمصحف عثمان رضي الله عنه. ويرجى أن تذبل فتموت بعض أخبار عند إخوتنا الشيعة، في بعض كتبهم وينكرها عقلاؤهم، تفرض وجود قرآن ضائع.

أما السنة فهي عندنا ما ورد عن رسول الله ﷺ بالسند الصحيح. وهي عندهم كذلك وإن كانت ثقتهم بالرجال تقاس بمعايير غير معاييرنا. لكن أهل السنة والجماعة يروُون الأحاديث الصحيحة عن الأئمة من آل البيت عليهم السلام. كلام الأئمة معصوم في اعتقاد الشيعة ويجب العمل به. وليس الخطْبُ في هذا عسيرا على العلاج، فإنَّ أهل الحديث منا يستندون إلى حديث الترمذي الذي يوصينا فيه رسول الله ﷺ أن نعض بالنواجذ على سنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده لكي يوسعوا مدلول السنة إلى الأحاديث الموقوفة على الأربعة الراشدين. ولا شك أن أئمة آل البيت عليهم السلام أهْلُ رُشدٍ وعلم، ورثَةُ بيت النبوءة. فما صح عنهم فهو على الرأس والعين. لا أظن مؤمنا يطعن فيهم ويبقى مؤمنا. تبقى مسألة العصمة وهي شائكة.

العصمة

سيدنا علي والأئمة من بنيه أهل عصمة حسب تعبير إخوتنا الشيعة. فزيادة على النص والوصية، يتمتع أئمة آل البيت بالأفضلية على أهل عصرهم، ويتمتعون بالتوفيق الإلهي، والإلهام، وهو غير الوحي الخاص بالأنبياء. الإمام عندهم هو الأمين على الشريعة، له الحق وحده في زمانه أن يفسرها ويجتهد فيها. وشخص الإمام عندهم هو القبلة التي يجب أن تتوجه إليها الأمة، واليعسوب الذي يجب أن تجتمع عليه. وبعد الأئمة الاثني عشر -في مذهب الاثني عشرية- بقي الإمام المنتظر الغائب هو الحافظ لأسرار آل البيت. فما كان من اجتهاد الفقهاء فإنما هو بالنيابة عنه. والإمام الخميني بنظريته في «ولاية الفقيه» جدد المذهب الشيعي، حيث أعطى الفقيه المجتهد حق النيابة عن الإمام الغائب. وبذلك يرجى أن تجمع الضرورات العملية الوقتية والمستقبلية شطري الأمة بعد أن فرقها الصدع التاريخي والتعلق بآلام الماضي وخلافاته.

الإجماع

الإجماع هو الأصل الثالث من أصول الدين. فإذا اتفق علماء الأمة على حكم ليس فيه نص قطعيُّ الثبوت والدلالة كان اجتهادهم مُلْزِما. هذا عندنا. أما عند إخوتنا الشيعة فالإجماع هو الاتفاق على نسبة الإمامة إلى رجل، والاتفاق على نسبة قول أو عمل لواحد من الأئمة. فمذهبنا أنسب لتنشيط الاجتهاد، والتفاعل الحي مع أحداث

التاريخ. لكن اختلف علماؤنا في معنى الإجماع وحدوده، هل يقف الإجماع عند الصحابة والتابعين، وهل يُلزِم إجماع علماء عصر سابق علماءَ العصر اللاحق. ثم تدخل السلطان ليصنع إجماعا لصالحه، انتهى بسد باب الاجتهاد، فعاشت الأمة على التقليد. ونشاهد في عصرنا عند إخوتنا الشيعة، وأمرهم مبدئيا مبني على التقليد للأئمة الأطهار، اجتهادا مبتكرا ساعد عليه مؤسساتهم العلمية التي حييت في إيران والعراق في القرون الأخيرة، وازدهرت، وكونت نخبة من العلماء هم الآن في الحكم وفقهم الله.

التقليد

نرجو بهذا العرض الموجز أن نقف عند ما يلي:

1 – إن إسلامنا الموروث انحدر إلينا من خلال تاريخ منكسر مليء بالصراعات المذهبية والعسكرية.

2– إن التراثيين المغربين الذين يرون في آراء الفقهاء، ضحية هذا الصراع وأطبائه، ركاما يجب نبذه ليرتفع عنا الحجر ونُعَصْرِنَ الدين، لا يمكن إقناعهم بأن أولئك الفقهاء حجة على عصرهم، وأن الأصلين القرآني والسني كفيلان وحدهما برفع كل حاجز دون فهمنا لمقاصد الشريعة، ودون تجديدنا للمنهاج النبوي القرآني لمستقبل الخلافة. فلنفهم تاريخنا فهما غير فهمهم.

3– إن الأمة لا يمكن أن تواجه تحديات الحاضر والمستقبل إن لم تجمع ما فرقته عصور الخلاف. وإنما يمكن ذلك بنصب الجسور، والتعاون الفعلي في جهود البناء، لتكون نتائج البناء المشترك حافزا على توحيد النظرة بعد حين. لا ينبغي أن نؤجل الحوار، ولا أن نستعجل

الوفاق، ولا أن نيأس لما نراه خلفنا من أهوال تاريخية. فإن تحولنا عن المواقف العاطفية، وعمقنا معاني الرحمة الأخوية الجامعة، فعسى يأذن الله جلت قدرته برجوع المياه إلى المجرى الأول.

4- إن وحدة الأمة إنما تـتاح بالرجوع إلى أصولها الثابتة بالكف عن تغذية ذكريات المآسي وشرحها إلا بمقدار ما تحصل العبرة. وإن الإغضاء الكريم عن فروع الخلاف ضروري ليتسنى لنا الحفاظ على ما يجمعنا.

5- إن تأسيس مستقبل الوحدة لا يمكن أن يعتمد خلافا مذهبيا يُتخذ بمثابة الأصل. وإلا حكمنا على أنفسنا بسرمدية الخلاف والانشقاق، إن لم نزد الانكسار التاريخي تفتـتا بما يستجد من مواقف متـناقضة بين أعضاء أمة جعلها الله خير أمة، ونرجو أن يـبتعثها ثانية لتعود شاهدة على الناس كما كانت. والشاهد لا بد أن يكون نموذجا في الثبات والثقة والقوة.

لنضع حداً لتقليد الأجيال المختلفة، لنكن شهداء بالحق عن أصالة كما كان السلف الصالح رضي الله عنهم شهداء بالحق عن أصالة.

الفصل الرابع

كيف انقلبت الخلافة ملكا؟

- الدين والسياسة
- رِبقَةُ الملك
- دين الانقياد
- «إذا قهرهم بالسيف»
- إمارة الاستيلاء
- أصل البلاء
- مناطُ البلاء
- الاستخلاف

الدين والسياسة

لو كان ذلك الانكسار في فجر تاريخنا خبرا مضى وقبر لما كانت بنا حاجة لنبشه. اضطرمت نار الفتـنة وبقيت مشتعلة قرونا طويلة، لا تخبو إلا بمقدار ما تستعيد قابليتها للاشتعال. واليوم ينهض المسلمون في فجر تاريخ جديد، وفي كيانهم، ثقافة وذكرى ومذهبا، آثار ذلكم الضرام. فهل يُنسينا بأسُ الجاهلية علينا اليومَ ما كان بينـنا من بأس ؟ وهل تعود الأمة فتلتحم على وَهَجِ الجهاد الحاضر والمستقبل كما تصدعت في نار الفتـنة ؟ نرجو من الله عز وجل ذلك.

من الآثار السيئة للفتـنة تمادي بعض المسلمين في التغني بأمجاد الإسلام دون أن يُرجعوا الفضل بعد الله عز وجل للأمة التي حملت إلى جانب أعباء الجهاد آلام أنظمة العض والجبر وويلاتها. لا يزال بعضهم ينسب خيرا ساقه الله للأمة على يد علمائها وفرسانها وصلحائها لزيد أو عمرو من الملوك. ويدافع عن جبابرة سفكوا الدماء، وهتكوا الحُرَمَ، وخربوا الذمم، وعتوا في الأرض فسادا، لمجرد إبقاء واجهةٍ مموهة صنعها المتملقون، وربما شارك في نصبها تحت الضغط بعض فضلاء الأمة. يدخل هذا الفهم البطولي للتاريخ في دائرة التقليد. ومن يُقلد لا يستطيع أن ينـتقد، وبالتالي يـبقى في جهالة عمياء، لا يستبـين الرشدَ لغده من عِبَرِ أمسه.

كتـب الشـيخ الجليـل أبـو الحسـن النـدوي في كتابـه: «مـاذا خسر العـالم بانحطـاط المسـلمين» يذكـر كيـف فصـل الملـوك الديـن عـن السياسـة، قـال: «وقع فصل بـين الدين والسياسـة عمليا. فـإن هؤلاء

(يعني الملوك) لم يكونوا من العلم والدين بمكان يستغنون به عن غيرهم من العلماء وأهل الدين. فاستبدوا بالحكم والسياسة، واستعانوا -إذا أرادوا واقتضت المصالح- بالفقهاء ورجال الدين كمشيرين متخصصين. واستخدموهم في مصالحهم، واستغنوا عنهم إذا شاءوا، وعَصَروهم متى شاءوا. فتحررت السياسة من رقابة الدين. وأصبحت قيصريةً أو كسرويةً مستبدة، وملكا عضوضا. وأصبحت السياسة كجمل هائج حَبْلُه على غارِبِهِ. وأصبح رجال الدين والعلم بين مُعَارِضٍ للخلافة، وخارجٍ عليها، وحائِدٍ مُنعزل اشتغل بخاصَّة نفسه، وأغمض العين عما يقع ويجري حوله، يائسا من الإصلاح، ومنتقدٍ متلهِّفٍ، يتنفس الصعداء مما يرى ويسمع، ولا يملك من الأمر شيئا، ومتعاونٍ مع الحكومة لمصلحة دينية أو شخصية. ولكلٍّ ما نوى. وحينئذ انفصل الدين والسياسة، وعادا كما كانا قبل عهد الخلافة الراشدة. أصبح الدين مقصوص الجناح مكتوف الأيدي. وأصبحت السياسة مطلقة اليد، حرة التصرف، نافذة الكلمة، صاحبة الأمر والنهي. ومن ثَم أصبح رجال العلم والدين طبقةً متميزةً، ورجالُ الدنيا طبقةً متميزةً. والشُّقَّة بينهما شاسعة. وفي بعض الأحيان بينهما عِداء وتنافس»[1].

رِبقَةُ المُلك

قرأنا كيف كان أبو بكر يَحْزَن على ما تحَمَّلَه من مسؤولية يخاف ألا يفي بها. ورأينا كيف ذكروا فضل عمر لما «مشى ضحضاحها وخرج سليما لم تبتل قدماه».

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، الطبعة السابعة، ص133.

فلما عادت مُلكا عاضا أصبح النظام بمثابة رِبقة حول عنق الأمة. لا هي استطاعت تحت قهر السيف أن تتخلص من الاستبداد، ولا استطاع أن يخلصها منه أفاضل الملوك الذين يَعْبرُون المجال ويبقى النظام بعدهم مستمرا لا فكاك منه. وما حدث من ثورات فإنما استبدل أسرة بأسرة، وسُلالةً بسُلالةٍ، وعصبيّة بعصبيّة. قال حكيم المؤرخين ابن خلدون: «واعلم أن الخلاص من ذلك، (أي الملك) بعد الحصول فيه عسير ممتنع. فإنَّ صاحب هذا الغَرَضِ (أي الخلاص من الملك) إذا كان هو الملك نفسه، فلا تمَكّنه الرعية من ذلك طرفة عين، ولا أهلُ العصبية المزاحمون له، بل في ظهور ذلك منه هدمٌ لملكه، وإتلافٌ لنفسه، بمجاري العادة في ذلك. لأنَّ رِبقةَ الملك يعسُر الخلاصُ منها، سيما عند استفحال الدولة وضيق نطاقها»[2].

أصبحت الأمة سجينة نظام الملكية، وأصبح السجان سجينا. وذلك من طبيعة العض كما جاء في لفظ النبوة. كان القهر والاستبداد قد أديا إلى موت كل شهامة وكل إرادة حرة في الأمة. فصارت «الرعية» مجموعةَ يتامى تحت وصاية حاشية البلاط وسيفها.

وإذا تتبعنا تاريخنا من أصوله عثرنا على سر هذا التطور الذي أخضع للسيف رقابا كانت حرة، وأرغم أنوفا كانت بعزة الإسلام شامخة. كانت ذمة المؤمن الذي لا يخون وعده قد اغتيلت ورُوِّضَتْ لتدخل تحت طاعة المستبد. روى البخاري عن نافع قال: «لما خلع أهلُ المدينة يزيدَ بن معاوية جمع ابن عمر حَشَمَهُ وولده فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يُنْصَبُ لكل غادر لواءٌ يوم القيامة. وإنا قد بايعنا هذا الرجلَ على بيعة الله وبيعة رسوله. وإني لا أعلم غدرا أعظم من أن يبايع رجل رجلا على بيعة الله وبيعة رسوله، ثم ينصِبَ له

(2) المقدمة، ص504.

القتال. وإني لا أعلم أحدا منكم خلعه ولا بايع (يعني الذين خلعوا يزيد) في هذا الأمر إلا كانت الفيصلَ بـيني وبـينه».

هذا صحابي جليل وفيٌّ يخاف عاقبة الغدر. لكن كيف بايع ؟

قال القاضي ابن العربي: «وقال ابن خياط: إن بـيعة عبد الله ليزيد كانت كَرْهاً. وأين يزيد من ابن عمر ؟ ولكن رأى بدينه وعلمه التسليمَ لأمر الله، والفرارَ عن التعرض لفتـنة فيها من ذهاب الأنفس ما لا يفي بخلع يزيد. ولو تحقق أنّ الأمر يعود بعده في نصابه. فكيف وهو لا يعلم ذلك»[1]. قال ابن العربي بعد هذا النقل: «وهذا أصل عظيم. فتفهموه والتزموه ترشُدوا إن شاء الله تعالى». يوصي رحمه الله وغفر لنا وله بالوفاء ببيعة المستبد.

هكذا نرى أن فصل الدين عن السياسة كان في الحقيقة إخضاع الدين للسياسة، واستغلال تقوى المتقين لتطويقهم ببيعة الإكراه. ولما كانت الفتن المذهبية داء مقيما في تاريخنا، وكان الخوف من ضياع الدين وسَط تلك الصراعات يسيطر على العقول، فقد أصبح قَبولُ رِبْقة البيعة الإكراهية «أصلا» يوصي به المشايخ تلامذتهم.

خلعَ علماءُ المدينة يزيدَ بن معاوية سنةَ ثلاث وستين، فكان القمع الوحشيُّ المعروف في التاريخ بوقعة الحَرَّةِ. قُتِل فيها مَقْتَلَةٌ عظيمة من أبناء المهاجرين والأنصار الأُباة. وقد رأينا الصحابيَّ الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كيف بقي على بيعته: اجتهاد.

وبعد عبد الله بن عمر علماء جعلوا موقفه أصلا: تقليد مميت.

كان الإمام مالك رضي الله عنه يجلس في مجالسه الحديثية ليحدث عن رسول الله ﷺ أنْ «**ليس على مستكره طلاق**». وسمع الناس مقالة

(1) أحكام القرآن، ج 2، ص976.

الإمام فاستندوا إليها ليقيسوا بيعة الـمُسْتَكَرَه على طَلَاقِ المستكْرَه. وكان أبو جعفر المنصور العباسي ملك الوقت، فكان يرى في الحديث عن الاستكراه وبطلان عقوده خطرا. لا سيما وفي زمانه قام الإمام محمد بن عبد الله النفسُ الزكيَّةُ قومته المشهورة، واستدل أصحابُه على جواز خلع العباسيِّ بحديث الاستكراه. نهى أبو جعفر مالكا عن رواية ذلك الحديث فأبى. وأوذي الإمام وضرب حتى خلعت كتفاه. وكان قلبه مع القائم محمد النفس الزكية. فكان اجتهاده رضي الله عنه أن يَخْلَعَ الربقَةَ.

دين الانقياد

سادت بعد طول التعسف والقهر روحُ الطاعة الخانعةِ للسيف بعد أن كانت البيعةُ في عهد الخلافة الراشدة عَقدا اختياريا. كانت عقدا يعطي الإمامَ حقَّ السمع والطاعة بشروط. فأصبحت البيعة اسما للانقياد بلا قيد ولا شرط. وأُلحقَتْ أحكامُ المبايعة وشؤون الإمامة بكتب الفقه كأنها فروعٌ لا خطر لها. بينما هيمن على حياة الأمة «دين الانقياد». وأول حكم من أحكام دين السيف قول أحدهم، ولا نذكر اسمه فإنه لا يهم، في مجلس بيعة إكراه: «من قال لنا برأسه هكذا (أي امتنع عن البيعة) قلنا له بسيفنا هكذا !».

قال حكيم المؤرخين: «واستحكمت لأهل ذلك النصاب (أي الملوك) صبغةُ الرئاسة. ورسخ في العقائد دينُ الانقيادِ لهم والتسليمِ. وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالَهم على العقائد الإيمانية. فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عِصابة (يكفي شرطة وجلادون !). بل كأن طاعتها كتابٌ من الله لا يُبَدَّلُ ولا

يُعْلَـم خلافُـه. ولأمْـرٍ مـا يوضَـع الـكلامُ في الإمامـة آخـرَ الـكلام عـلى العقائد الإيمانيـة»[1].

«إذا قهرهم بالسيف»

روى القاضي أبو يعلى قال: «ورُوِي عنه (عن الإمام أحمد) أنها (الإمامة) تـثبت بالقهر والغلبة ولا تفتقر إلى العقد. فقال في رواية عبدوس بن مالك العطار: ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسُمِّيَ أمير المؤمنين، فلا يحلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماما، بَرّاً كان أو فاجراً. وقال أيضا في رواية أبي حارث في الإمام يخرج عليه من يطلب الملك، فيكون مع هذا قوم ومع هذا قوم: «تكون الجماعة مع من غلب». واحتج بأن ابن عمر صلى بأهل المدينة في زمن الحرة، وقال: نحن مع من غلب»[2].

من بين الأحاديث الكثيرة التي تأمر بالصبر على جَوْر الحكام أو عصيانهم عندما يكون أمرُهم مخالفا للدين حديث أورده الإمام أحمد في مسنده مرفوعا. وقد قرأنا فتواه التي رواها عنه أبو يعلى الفقيه الحنبلي والتي يستـند فيها إلى قول صحابي لِيُفْتِيَ بإمامة الغالب وبأن الجماعة مع السيف. لا يُظَنَّ بأئمتـنا إلا أنهم احتاطوا لدينهم وللأمة جزاهم الله خيرا. وهم كانوا أَبْصَرَ بواقعهم وأقدر على وزن النـتائج المترتبة على الصبر أو المناهضة.

لكن الحديث الذي أورده الإمام أحمد ولم يعتمده يـبدو لنا سندا لفتوى تـناسب زمانـنا تمام المناسبة. روى عن حذيفة

(1) المقدمة، ص272.

(2) نصوص الفكر السياسي الإسلامي، ص241.

رضي الله عنه قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن الخير وأسأله عن الشر. فقلت: يا رسول الله ! هل بعد الخير من شر كما كان قبله شر ؟ قال: **نعم !** قلت: فما العصمة منه ؟ قال: **السيف أحسَبُ !** أبو التياح (أحد رجال الحديث) يقول: **السيف أحسَبُ !** قال: قلت: ثم ماذا ؟ قال: **ثم تكون هدنة على دخن.** قال: قلت: ثم ماذا ؟ قال: **ثم تكون دعاةُ الضلالة.** قال: **فإن رأيت يومئذ خليفة الله في الأرض فالزمه وإن نُهِكَ جسمُك وأخِذَ مالُك. فإن لم تره فاهرب في الأرض ولو أن تموت وأنت عاض بجِذْلِ شجرة !** قال: قلت: ثم ماذا ؟ قال: **ثم يخرج الدجال.** قال: قلت: فما يجيء به معه ؟ قال: **بنهرٍ أو قال ماءٍ ونارٍ، فمن دخل نهره حُطَّ أجرُهُ ووجب وِزْرُه، ومن دخل ناره وجب أجرُه وحُطَّ وِزرُه.** قال: قلت: ثم ماذا ؟ قال: **لو أنتجتَ فَرَساً لم تركب فِلوها حتى تقوم الساعة.** قال شعبة حدثني أبو بشر في إسناد له عن حذيفة عن النبي ﷺ. قال: قلت: يا رسول الله ! ما هدنة على دخن ؟ قال: **قلوب لا تعود على ما كانت**».

كلمة «**السيف أحسَبُ**» التي نطق بها رسول الله ﷺ ويؤكدها راوي الحديث كلمة مهمة نقف عندها للتأمل وللاستنباط فريضة مقاومة الاستبداد. هناك أحاديث نبوية أخرى تأمر بمحاربة دعاة الضلالة إن أظهروا كفرا بواحا. وكلمة «**السيف أحسب**» تعطينا علاج الخمول والانقياد للحاكم المستبد. فلا يقهر السيفَ إلا السيفُ متى فشلت الوسائل السليمة والقومات الجماهيرية وعجزت عن كف أغلال رِبقة الملك العاض والجبري. والحَسَبُ في لغة العرب الشرف. فلا عصمة من الشر إلا بمقاومته والتصدي له.

إمارة الاستيلاء

إن القول بإمامة المتغلب ما هو إلا التماس فقهي لفتوى تجمع أمر الأمة الشتيت في شبه مشروعية. إنه يـنبئ عن مرونة الفقهاء الذين ارتكبوا أخف الضررين حين تفاقم حكمُ السيف، وظهرت دولٌ في الدولة. فأراد الفقهاء أن يدخلوا السلطان الفعلي الذي كان لبني بويه والسلاجقة والغزنويـين وسائر هذه التكتلات القبلية تحت السلطة الاسمية للسلطان المركزي. فكان «الخليفة» العباسي لا يستطيع أن يولي على الأقاليم من شاء، فيُضْطَّرُ للاعتراف بالمستولي المسلَّح الممتـنع عن طاعة الدولة. وهكذا يـبقى للدولة اسم يذكر في خطبة الجمعة أو أثر ينشر على شكل سِكة تحلى بأسماء «الخلفاء».

يقول القاضي أبو يعلى في كتاب «الأحكام السلطانية»: «فأما إمارة الاستيلاء التي تعقد على اضطرار فهي أن يستولي الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها، ويفوض إليه تدبيرها وسياستها (...). وهذا وإن خرج عن عُرف التقليد المطلق ففيه من حفظ القوانين الشرعية ما لا يجوز أن يُتْرَكَ فاسدا»[1].

الفقيه الجليل يرى أن الفساد قد أُصْلِحَ إن حافظنا على المظاهر والشكل. تشبثهم رحمهم الله بوحدة الأمة والأمة تـنقض عراها، حسب التعبـير النبوي، ألجأهم إلى القناعة بأدنى مظاهر وحدة السلطان.

ويُفَصِّلُ الماورديّ الاستيلاء تفصيلا فيقول: «فصل، وأما نقص التصرف فضربان: حَجْرٌ وقهر. فأما الحجر فهو أن يستولي عليه من

(1) نصوص الفكر السياسي الإسلامي، ص260.

أعوانه من يستبد بتـنفيذ الأمور من غير تظاهر بمعصية، ولا مجاهرة بمُشاقَّةٍ، فلا يمنع ذلك من إمامته، ولا يقدح في صحة ولايته».

نقول: إذا سلمت الواجهة فالاستبداد لا يسمى معصية، والإمام يـبقى إماما، والوالي واليا ! كذلك حكم السيف: مستبـد على مستبد والدنيـا لمن غلب.

ثم يضيف القاضي الجليل: «ولكن ينظر في أفعال من استولى على أموره. فإن كانت جارية على أحكام الدين ومقتضى العدل جاز إقرارُه عليها تـنفيذا لها، وإمضاء لأحكامها، لئلا يقف من الأمور الدينية ما يعودُ بفساد على الأمة. وإن كانت أفعالُه خارجة عن حكم الدين ومقتضى العدل لم يجز إقرارُه عليها، ولزِمَهُ أن يستـنصر من يقبض يدَه، ويُزيل تغلُّبَه»[2].

كلمة «حَجر» التي استعملها الماوردي كلمة حَيِـيَّةٌ تُخْفي تعسف أمراء العساكر الذين كانوا يلعبون بالملوك العباسية بعد المعتصم. فينصبون من أطاعهم، ويطردون ويعذبون ويسملون عيون من عصاهم. وكانت الأمة بمعزل عن كل هذا، تدين بدين الانقياد. والجملة الأخيرة تـنبئ عن المؤامرات التي كانت تُحاك في البَلاط لضرب بعض المستبدين العساكر بعضِهم ببعضٍ.

تفتُّـتٌ في السلطة حاول الفقهاء المبَجَّلون أن يَلُموه ويجمعوه في سماء الفقه بروابط الاستدلال. وهيهات أن يستقيم لعلمائنا الأتقياء ما أرادوا والأمة يدوسها كل دائس، والباب مفتوح لكل عصبـية مسلحة أن تـتغلب فتفوز بفتوى: «نحن مع من غلب».

(2) الأحكام السلطانية، ص21.

أصل البلاء

روى أبو داود والترمذي عن سفينةَ مولى رسول الله ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: «**الخلافة في أُمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك**. قال سعيد بن جمهان (الراوي عن سفينة): ثم قال (أي سفينة): أمسكْ ! (أي احسُبْ): خلافة أبي بكر، وخلافة عمر، وخلافة عثمان. ثم قال: أمسِكْ: خلافة علي. فوجدناها ثلاثين سنة. قال سعيد فقلت له: إن بني أمية يزعمون أنَّ الخلافة فيهم ! قال: كذبوا بَنُو الزرقاء ! بَل ملوكٌ من شر الملوك». هذه رواية الترمذي.

وعند أبي داود: «قال رسول الله ﷺ: «**خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك من يشاء**. قال سعيد: قال لي سفينة: أمسك: أبو بكر سنتين، وعمر عشرا، وعثمان اثنتي عشرة، وعلي ستا. كذا قال سعيد: قلت لسفينة: إن هؤلاء يزعمون أنَّ عليا لم يكن بخليفة ! قال: كذبَتْ أَسْتَاهُ بني الزرقاء ! يعني بني مروان». هذا حديث حسن. قال الحافظ في الفتح: «رواه أصحاب السنن وصححه ابن حبان.

مناطُ البلاء

بدأ البلاء بالملوك شر بداية كما قال الصحابيُّ وكما أنبأ رسول الله ﷺ. وجثم على صدر الأمة الحكم الوراثي الذي لا نزال نعانيه. والوراثة مَناط البلاء لأنها تعني غياب اختيار الأمة، وعزلَها عن أمرها الذي فرض الله أن يكون شورى. تعني حكم الغِلْمة الذين على أيديهم هَلَكَةُ الأمة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أعوذ بالله من إمارة الصبـيان**». قالوا: وما إمارة الصبـيان ؟ قال: «**إن أطعتموهم هلكتم** (أي في دينكم) **وإن عصيتموهم أهلكوكم** (أي في دنياكم)». كذا نقل الحافظ في الفتح عن علي بن معبد وابن أبي شيـبة. قال: وفي رواية ابن شيـبة أن أبا هريرة كان يمشي في السوق ويقول: «اللهم لا تُدركْني سنة ستين وإمارة الصبـيان». قال الحافظ: «وفي هذا إشارة إلى أن أول الأُغَيلمة كان في سنة ستين. وهو كذلك، فإن يزيد بن معاوية استُخلف فيها».

قلت: وهكذا بدأت بدعة الوِراثة العاضة التي كانت في تاريخنا مناطَ البلاء كله.

وما زالت بدعة الوراثة تسير في طريقها الطبـيعي حتى تطورت إلى اللعب السافر بالأمة. تريد الأُسرة الحاكمة، والعصبـية الجاثمة، والنظام المتسلط، أن تحافظ على مصلحتها وبقائها، فينصِب الحاكمُ ابنه، أو واحداً من قرابته، وليا لعهده. ويعطون لهذه الوِلاية الفاجرةِ صِبغةً شرعية عندما يُكرهون الناس على بـيعة الوارث. وهي في الحقيقة بَـيْعٌ للدين، لا بَـيْعة يُقرها الدين. نُصِبَ الصبـيانُ سادةً على رؤوس الأمة، بل بويع حتى لمن لم يولد. وهكذا فسدت أداةُ الحكم، وشُوِّهَتِ السلطة، وعُبِدت الأصنامُ الوراثية. وعَبث الغلمان، وعُبِث بهم. فذلك هلاك الأمة كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ.

قال ابن خلدون: «صبي صغير، ومُضَعَّفٌ من الـمَنْبِتِ (أي الأسرة)، يترشح للولاية بعد أبيه، أو بترشيح ذويه وخَوَله. ويُؤنَسُ منه العجزُ عن القيام بالملك، فيقومُ به كافله من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه أو قبـيله. ويُوَرّي عنه بحفظ أمره عليه، حتى يونَسَ منه الاستبداد (يعني أنَّ الكافل يوهم الصبيَّ أنه لا يعمل

إلا لمصلحته، حتى يتمكن الكافلُ فيستبد بالأمر). ويجعل ذلك ذريعةً للملك. فيحجبُ الصبيَّ عن الناس، ويُعَوِّدُهُ اللذاتِ التي يدعوه إليها ترف أحواله. ويُسيمُه في مراعيها متى أمكنه. ويُنسيه النظر في الأمور السلطانية، حتى يستبدَّ عليه. وهو (أي الصبي) بِمَا عوَّده، يعتقد أن حظ السلطان من الملك إنما هو جلوسُ السرير، وإعطاءُ الصفقة، وخطابُ التهويل، والقعود مع النساء خلف الحجاب»[1]. ويرحم الله ابن خلدون فقد عاش هذه الأمور وشارك فيها، فهو يُخْبِر عن تجربة.

الاستخلاف

بدأت ولاية العهد الملكية وكأنها امتداد للاستخلاف الذي سنه أبو بكر الصدِّيقُ رضي الله عنه عندما استخلف من بعده عمرَ. كانت ولاية العهد الملكية شكلا أُفْرِغَ من معناه، لأن الخليفةَ الراشد اجتهد للأمة فاختار لها أقدر الرجال، والملوك ما دفعهم لتوريث أبنائهم إلا الحرصُ على بقاء السلطان في السلالة. وشتان بين استخلاف لا يتعدى أن يكون إشارة لراعي المصلحة العامة الخبير بالرجال، ثم ترضى الأمة فتبايعُ أو تختارُ لنفسها، وبين وراثة الملك العاض الناشِبِ أظفارَه في الفريسة، تتعاقب على افتراسها الأجيالُ المترفة!

استندوا إلى الدين فجعلوا البيعة ربقة في عنق المتقين. وما فطِن الأخيار، بل تغاضوا، أن بيعة ولي العهد عُقْدَةٌ باطلةٌ لأنَّ أحَد الطرفين غشَّ في النية، وغش في دعوى الكفاءة والعلم والتقوى، وكلها شروط ضرورية لصحة البيعة.

(1) المقدمة، ص329.

نقل الحافظ في الفتح عن الإمام النووي وغيره قالوا: «أجمعوا على انعقاد الخلافة بالاستخلاف، وعلى انعقادها لعقد أهل الحل والعقد لإنسان حيث لا يكون هناك استخلافُ غيرِه. وعلى جعل الخليفة الأمرَ شورى بين عدد محصور أو غيره»[2].

وذكر الماورديُّ الإجماع على صحة إمامة المستخْلف مستشهدا برضى الصحابة بصنيع أبي بكر. وذهب مذهب الجمهور الذي حكاه الحافظ من أن رِضى الأمة وسخطها سواء، وأن بيعة المستخلَف تَلْزَمها على كل حال. لكنه أورد رأيا هو في نظرنا الأسَدُّ والكفيل وحده بسد الذريعة التي دخل منها على الأمة البلاءُ، فعشش وفرخ. قال: «فذهب بعض علماء أهل البصرة إلى أن رضى أهل الاختيار لبيعته (أي المستخلف) شرط في لزومها للأمة، لأنها حق يتعلق بهم، فلم تلزمهم إلا برضى أهل الاختيار منهم»[3].

ولعل عبقريَّ الأمة عمر رضي الله عنه نظر للأمة نظراً صالحا للتطبيق، لا سيما وهو نظر يحترم الأمر القرآني، أن يكون أمر الأمة شورى بينها. فجعل الاستخلاف في جماعة. قال الحافظ ابن حجر: «قال ابن بطال ما حاصله: إن عمر سلك في هذا الأمر مسلكا متوسطا خشية الفتنة، فرأى أن الاستخلاف أضبطُ لأمر المسلمين. فجعل الأمرَ معقوداً موقوفا على الستة، لئلا يترك الاقتداء بالنبي ﷺ وأبي بكر. فأخذ من فعل النبي طرفا وهو ترك التعيين، ومن فعل أبي بكر طرفاً وهو العقد لأحد الستة، وإن لم يَنُصَّ عليه»[4].

(2) فتح الباري، ج 13، ص208، طبعة المكتبة السلفية.
(3) الأحكام السلطانية، ص10.
(4) فتح الباري، ج 13، ص207.

كان الصحابة رضي الله عنهم يرون في صنيع أبي بكر عندما استخلف إجْراءً رشيدا. فقد جاء عند الشيخين وغيرهما حديث عن عبد الله بن عمر أنه تجادل مع أم المؤمنين أُخْتِهِ حفصةَ، هل يستخلفُ والدهما أو لا ؟ فذهبت حفصة إلى عمر فقالت: «زعموا أنك غيرُ مستخلف ! وأنه لو كان لك راعي إبل أو راعي غنم ثم جاءك وتركها لرأيت أنه قد ضيع. فرعايةُ الناس أشد».

وذكر ابن قتيبة في كتاب «الإمامة والسياسة» أن أبا بكر خطب الناس عند احتضاره، وخيَّرَهم بين أن يترك لهم أمرهم يأتمرون ويتشاورون فيه، وبين أن يختار لهم. فقالوا: «يا خليفة رسول الله ! أنت خيرُنا وأعلمنا، فاختر لنا».

نستخلص من هذا أن الاستخلاف قد يكون توجيها لاختيار الأمة يساعد على الاستقرار. لكنه إن تم استبداداً من الإمام يوشك أن يصبح مزلقة نحو الكارثة. والأصل الشورى. روى الحاكم عن علي أن رسول الله ﷺ قال: «**لو كنت مستخلفا أحدا من غير مشورة لاستخلفت ابن أم عبد**».

كان عثمان رضي الله عنه أقربَ المستشارين لعمر، وكانوا يُسَمُّونه رديفاً. فكرة الرديف هذه يمكن أنْ تنفعنا في غد الخلافة لأنها تسد فجوة بعد غياب الإمام ريثما تأتمر الأمة.

الفصل الخامس

الشرع ذم الملك

- الشرع ذم الملك
- بين العيب والضرورة
- المتملقون
- الجاه والمال
- جباية وترف
- ساعدته الشوكة
- انـتهى عهد ألف ليلة وليلة !

بين العيب والضرورة

كتب شيخ الإسلام ابن تيمية قال: «الغرض هنا بيان «جماع الحسنات والسيئات» الواقعة بعد خلافة النبوة في الإمارة وفي تركها. فإنه مقام خطير. وذلك أن خبره (أي النبي ﷺ) بانقضاء خلافة النبوة فيه الذم للملك والعيبُ له. لا سيما وفي حديث أبي بَكْرَةَ أنه استاء للرؤيا وقال: «**خلافة نبوة، ثم يؤتي الله الملك من شاء**». ثم النصوص الموجبة لنصب الأئمة والأمراء، وماضي الأعمال الصالحة التي يتولونها من الثواب، حمدٌ لذلك، وترغيبٌ فيه. فيجب تخليصُ محمودِ ذلك من مذمومِه. وفي حكم اجتماع الأمرين. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**خُيِّرْتُ بين أن أكون عبدا رسولا وبين أن أكون نبيا مَلِكا، فاخترت أن أكون عبدا رسولا**»[1].

هكذا وازن الشيخ ابن تيمية بين عيب الملك وضرورته. في كلام يكشف عن معاناة فقهائنا، وهم مضطرون للدفاع عن الأمر القائم، خوفا من انهيار الوحدة الإسلامية. لكن الفقيه الجليل يبوح بدخيلة نفسه بعد صفحات فيكتب: «مثل من لا تطيعه نفسه إلى القيام بمصالح الإمارة (...). لا بحظوظ منهي عنها من الاستئثار ببعض المال، والرياسة على الناس (أي الاستبداد)، والمحاباة في القَسْم، وغير ذلك من الشهوات (...)، فهذا القِسْمُ كثر في دول الملوك. إذ هو واقع فيهم وفي كثير من أمرائهم وقضاتهم وعلمائهم وعُبَّادهم. أعني أهل زمانهم. وبسببه نشأت الفتن بين الأمة»[2].

(1) ابن تيمية في الفتاوي، ج 35، ص21.

(2) نفس المصدر والجزء، ص30.

الرجل يعلم يقينا أن فساد الحكم أَفْسَدَ المجتمع. ولاحِظْ كيف ينسب أصناف الناس إلى الأمراء الفاسدين: «قضاتهم»، «علمائهم»، «عبادهم»، ليشير إلى وجود جحافل من الوصوليين السائرين في ركاب الحاكم.

ويدافع ابن خلدون عن الملك من نفس الموقع، إذ يوازن بين سيئاته وضرورته. يقول: «واعلم أن الشرع لم يَذُمَّ الملك لذاته ولا حَظَرَ القيام به. وإنما ذَمَّ المفاسدَ الناشئة عنه من القهر، والظلم، والتمتع باللذات. ولا شك أن هذه مفاسدُ محظورةٌ، وهي من توابعه. كما أَثْنَى على العدل، والنَّصَفَةِ، وإقامة مراسِم الدين، والذَّبِّ عنه. وأوجب بإزائها الثوابَ وهي كلّ من توابع الملك. فإذن إنما وقع الذم للملك على صفة وحال دون حال أخرى. ولم يذمَّه لذاته»[1].

إذا كانت مفاسد القهر، والظلم، والاستبداد، والانحلال الخلقي، ناشئةً عن الملك، لازمة له، فكيف تنتظر أن يصبح الفساد صلاحا ؟ وكيف نبرئ «ذات» الـمُلك وهي لا تنفك عن صفات الـمُلك ؟ إن فسادَ النظام من أساسه لا يمكن أن يغيب عن العاقل بظهور أفراد صالحين من الملوك والأُمراء. فتلك استثناآت من القاعدة. ويكفي أن رسول الله ﷺ سماه ملكا عاضا أو عضوضا بصيغة المبالغة. وهل العض من صفات الحمد أو من صفات الحيوانية ؟

المتملقون

كتب الإمام الغزاليُّ رسالة رائعة لـمُجير الدين، أحدِ أُمراء زمانه قال: «وأما إغاثة الخلق فواجبة على العموم. حيث إن الظلم قد جاوز حده. وقد مضى ما يقرب من سنة منذ هجرت طوس حتى أتخلص

(1) المقدمة، ص341.

من مشاهدة الظالمين الذين لا رحمة ولا حرمة لهم. وبحكم الضرورة أُتيح لي الرجوع، فوجدت الظلم متواتراً كما كان، وعذاب الخلق باقيا ومتزايدا».

ويتعرض لذكر خَدَم الأمير وحاشيته فيكتب: «وإذا تأمل عرف بأنهم لا يخدمونه، بل يخدمون أطماعهم وشهواتهم، وأن ثناءهم ومدحهم وإظهار مودتهم غيرُ خالصةٍ له. وفي الحقيقة صداقتهم ليست إلا لتلك الدراهم الخسيسة المأخوذة منه. فهي مسخرة، وواسطة لأطماعهم، يخدعونه بالخدمة، وإظهار الصداقة. فإذا سمعوا إرجافا بأن المخدوم يفكر في عزلهم وتولية الآخرين، أعرضوا عنه، واتخذوا عِداءه أضعاف تلك الخدمة»[2].

الجاه والمال

الدراهم الخسيسة، وشراء الضمائر، واستغلال النفوذ، من لوازم الأنظمة الفاسدة. خذ شهادة مجرب هو ابن خلدون: «والأعمال لصاحب الجاه كثيرة، فتفيد الغنى لأقرب وقت، ويزداد مع الأيام يَسارا وثروة. ولهذا المعنى كانت الإمارة أحد أسباب المعاش»[3]. «إن الحضري إذا عظم تموُّلُه (...) زاحم عليها الأُمراء والملوك وغُصّوا به. ولِما في طباع البشر من العُدوان، تمتد أعينهم إلى تملك ما بيده، وينافسونه فيه، ويتحيلون على ذلك بكل ممكن، حتى يحصلوه في ربقة حكم سلطاني، وسَبَبٍ من المؤاخذة ظاهرة (يعني أنهم يوقعونه في فخ) ينتزع به ماله.

(2) فضائل الأنام، ص97.

(3) المقدمة، ص693.

وأكثر الأحكام السلطانية جائرة في الغالب. إذ العدل المحض إنما هو في الخلافة الشرعية»[1].

جباية وترف

كلمة ترف كلمة قرآنية تفيد الترفه والتوسع في النَّعمة كما قال الراغب الأصفهاني. والترف مذموم في القرآن لأن الترف قرين الاستكبار والكفر والصد عن سبيل الله. ونجد عند مؤرخنا النابغة ابن خلدون تحليلا لسقوط الدول وتفتت المجتمع لا يقف عند العوامل السياسية والاقتصادية، وإنما يدمج فيها عامل الفساد الخلقي الناتج عن الترف. هذا التحليل يسير في خط القرآن. نظام الملك هو البيئة التي يولد فيها الترف ويزدهر. وظهوره وازدهاره ثمرةُ تلاقُح بين استغلال النفوذ، واحتجان الأموال بالباطل. الترف زهرة مزابلِ الفساد السياسي الاقتصادي. فهو تركيب نفسي مواكب لحركة الاقتصاد والسياسة والاجتماع. ولا توجد كلمة ولا مدلول يقاربها في فكر المؤرخين الفلاسفة الماديين وتحليلهم. هذا جانب من جوانب تفوق التحليل الإسلامي على التحليل المادي.

هاك نموذجا لرصد ميلاد الترف، واستفحاله، وعلاقته بالكل السياسي الاقتصادي الاجتماعي. قال مؤرخنا: «ثم يحصل الاستيلاء ويعظم، ويستفحل الملك، فيَدْعو إلى الترف، ويكثر الإنفاق بسببه. فتعظم نفقات السلطان وأهلِ الدولة على العموم. بل يتعدى ذلك إلى أهل المِصر، ويدعو ذلك إلى الزيادة في أُعْطِياتِ الجند، وأرزاقِ أهل الدولة. ثم يعظم الترف، فيكثر الإسراف في النفقات، وينتشر

(1) المقدمة، ص655.

ذلك في الرعية، لأن الناس على دين ملوكها وعوائدها. ويحتاج السلطان إلى ضرب المكوس على أثمان البِـياعات في الأسواق لإدْرارِ الجِباية، لِما يراه من ترف المدينة الشاهدِ عليهم بالرَّفَهِ. ولِما يحتاج هو إليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده. ثم تزيد عوائد الترف، فلا تفي بها المكوس. وتكون الدولة قد استفحلت في الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا. فتمتد أيديهم إلى جمع المال من أموال الرعايا»[2].

ساعدته الشوكة

مع أن الشرع ذم الملك، ومع أن علماءنا كانوا على بـينة من أن نظام الوراثة فاسد، فقد دافع كثير منهم عن هذا النظام مخافة الفوضى واختلال أمر الأمة. هذا الإمام الغزالي يكتب: «لأن السلطان الظالم الجاهل مهما ساعدته الشوكة، وعسُرَ خَلْعُه، وكان في الاستبدال به فتـنةٌ ثائرة لا تطاق، وجب تركه، ووجبت الطاعة له»[3].

يكتب هذا نفس الغزالي الذي يشجب الظلم وتعذيب الخلق ونظام «الدراهم الخسيسة». وكأن النظام الوراثيّ الاستبدادي مرضٌ أصاب الأمة، فتعلمت حين أعياها الدواء كيف تعايشه. وقَدَرُ الله الذي نطق به الصادق المصدوق ماضٍ. وشرعُه يفرض علينا أن نُـنْهي هذا المنكر.

انـتهى عهد ألف ليلة وليلة !

نقرأ معا صفحة مشرقة بالأمل في مستقبل الإسلام، مكفهرة بالغضب على دول الفتـنة، لواحد من أبلغ كتاب الإسلام المعاصرين،

(2) المقدمة، ص525.
(3) الإحياء، ج 2 ص124.

وأبصرِهم بشؤون هذه الأمة: الشيخ الجليل أبي الحسن الندوي. قال: «هذا هو العهد (عهد الملوك) الذي ازدهر في الشرق طويلا وترك رواسبَ في حياة هذه الأمة ونفوسها. وفي أدبها وشعرها وأخلاقها واجتماعها. وخلف آثارا باقية في المكتبة العربية. ومن هذه الآثار الناطقة كتاب «ألف ليلة وليلة» الذي يصور ذلك العهد تصويرا بارعا، يومَ كان الخليفة في بغداد، والمِلِكُ في دمشق أو القاهرة، هو كل شيء، وبطل رواية الحياة، ومركز الدائرة. إن هذا العهد (...) لم يكن عهدا إسلاميا، ولا عهدا طبيعيا معقولا. فلا يرضاه الإسلام ولا يُقره العقل. بل إنما جاء الإسلام بهدمه والقضاء عليه. فقد كان هذا هو العهد الذي بعث فيه محمد ﷺ فسماه الجاهلية، ونعى عليه وأنكر على ملوكه -ككسرى وقيصر- وعلى أثرتهم وترفهم أشد الإنكار. (...).

«إنه وضع شاذ لا ينبغي أن يبقى يوما فضلا عن أن يبقى أعواما. إنه إن سبق في عهد من عهود التاريخ، وبقي مدة طويلة، فقد كان ذلك على غَفْلة من الأمة، أو على الرغم منها، وبسبب ضعف الإسلام، وقوة الجاهلية. ولكنه خليق بأن ينهار ويتداعى كلما أشرقت شمس الإسلام، واستيقظ الوعي، وهبت الأمة تحاسب نفسها وأفرادها. (...) ألا إنّ عهد «ألف ليلة وليلة» قد مضى، فلا يَخْدَعَنَّ أقوام أنفسهم، ولا يربطوا نفوسهم بعجلة قد تكسرت وتحطمت. إن الملوكية مصباح -إن جاز هذا التعبير- قد نَفِدَ زَيْتُه، واحترقت فتيلته، فهو إلى انطفاء عاجل ولو لم تهب عاصفة.(...) (هي سفينة) فخير للمسلمين وخير للعرب أن يخلصوا أنفسهم منها، ويقطعوا صلتهم بها قبل أن تَغْرَق فيَغْرَقوا معها»[1].

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص289-291.

الفهرس

مقدمة 5

الفصل الأول

خليفة أنا أم ملك ؟

خليفة أنا أم ملك ؟ 11
الخلافة للدين و الدنيا 12
ظاهرة فريدة 13
نظام قرآني 14
صورتان 16
وجه خليفة 17
وجه ملك 19

الفصل الثاني

الانكسار التاريخي

خلفاء الله في الأرض 23
الإمام الشهيد 25
حمية الجاهلية تستيقظ 27

الفصل الثالث

الاختيار ووِلاية المعصوم

الاختيار ووِلاية المعصوم 35
الاختيار 38

السنة 39
العصمة 40
الإجماع 40
التقليد 41

الفصل الرابع

كيف انقلبت الخلافة ملكا ؟

الدين والسياسة 45
رِبْقَةُ الملك 46
دين الانقياد 49
«إذا قهرهم بالسيف» 50
إمارة الاستيلاء 52
أصل البلاء 54
مَناطُ البلاء 54
الاستخلاف 56

الفصل الخامس

الشرع ذم الملك

بين العيب والضرورة 61
المتملقون 63
الجاه والمال 63
جباية وترف 64
ساعدته الشوكة 65
انتهى عهد ألف ليلة وليلة 66

yassine.net